بين العقاد والرافعي

# مناقشات وشروح

## للأستاذ سيد قطب

— ١١ —

عتب على كثير من الاخوان، وكثير من القراء، انشغالي في بعض الأحيان بالردود على بعض من كتبوا في الرسالة — عن الموضوع الأصيل الذي اخترت الحديث فيه، وعن شرح الآراء العامة التي أدليت بها في أدب العقاد وأدب الرافعي، وسوق الأمثلة وتقرير الحقائق

وعند هؤلاء الاخوان أن آخذ بسبيلي في الموضوع الأصيل غير ملتفت إلى شيء مما يقال — لأنه لم يقل بشيء يستحق العناية به — وهذا كان رأيي الذي صرحت به مرة ومرة

وبودي لو أطمت هؤلاء الراغبين في الاستفادة، ولم ألق بالي إلى شيء مما يقال، ولكنني في الواقع أرى هناك ارتباطاً وثيقاً بين الموضوع ذاته وبين المناقشات التي تدور حوله، لا في موضوعها وقيمتها، ولكن في شكلها وبواعثها

وأفسر هذا فأقول: إن المدرسة العقادية تعنى بتصحيح المقاييس الأدبية عنايتها بتصحيح المقاييس النفسية، وقد أوردت من هذا نماذج في شعر العقاد، عن «عدل الموازين. والعبوسة والبشاشة. ودرجات الفضائل... الخ» فاذا ما عنيت بمناقشة الأستاذ العريان، والأستاذ مظهر، أو سواهما، فانما أوجه عنايتي إلى «كشف» العوامل النفسية التي تبعثهما على الكتابة، وإلى «فضح» الظواهر المصطنعة التي تبدو فيها الأحكام، وإلى «تشخيص» العنت و«العدالة الزائفة» في إصدارها

وهذا كله يعني المدرسة الحديثة عنايتها بالآراء الأدبية ذاتها، فما تقصد هذه المدرسة إلى تصحيح معايير الآداب والفنون، إلا وهي تعنى من ذلك تصحيح الأمزجة والنفوس. وهي لا تقصد بهذا الدعوة إلى المبادىء الخلقية التي يحترمها الناس بقوة العرف والاستمرار، ولكن تريد أن تصح النفوس فتكون هذه المبادئ أثراً لتفاعلها مع الحياة، أو جزءاً من غذائها اليومي الذي يدخل في كيانها، لا أن تكون كالثوب تلبسه وتخلعه حسب المناسبات!

ومن هنا كشفت عن «العدالة الفريدة» التي تصف رد العقاد على الرافعي بأنه «سباب وشتائم» وتصف نقد الرافعي بأنه «منزه عن العيوب» وكان هذا الكشف بالأمثلة التي لا تدع قولاً لقائل!

ومن هنا كذلك كشفت عن «النزاهة العجيبة» في وصف الدفاع عن العقاد ومدرسته بالشذوذ ومناصرة شخص على شخص ووصف «على السفود» بأنه «مثال يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص» وجئت كذلك بما استطعت أن أنقله عن الرافعي من أسلوب في شتم العقاد!

وأنا أعتبر هذا جزءا من تصحيح أساليب الأدب — باعتباره وسيلة لتصحيح النفوس — ولا أدري أنني عدوت الموضوع الذي أتحدث فيه على هذا الاعتبار.

فأما الواقع فإنني أعجب لهذه الكثرة التي كتبت ترد على دون أن تقول شيئا في «الموضوع» مع مطالبتها لي أن أترك «الذاتية» وأتناول «الموضوعية» في أدب العقاد وأدب الرافعي!

وهأنذا أراجع كل ما قيل. فماذا أرى؟

كل ما كتبه أنصار الرافعي، إنما هو شتائم شخصية، لسيد قطب، أكثرها في أدبه وخلقه ونفسه — وهو خارج نهائيا على الموضوع — وأقلها في تفكيره واستعداده واطلاعه — وهو قد يتصل بالموضوع — ولكن بدون دليل، إلا إشارات البكم، وتعبيرات العوام عن المسائل المبهمة في نفوسهم، التي لا يحسنون التعبير عنها ولا يقدمون الدليل.

أفيسنيكم — يا هؤلاء جميعاً — أن تشتموا كاتب هذه الكلمات؟ لئن كان الأمر هكذا فأنا معكم أعاونكم في شتمه إذا عجزتم، وأصرح لكم عنه بما يمنعكم خوف تقاليد الأخلاق — لاحياء نفوسكم — من التصريح به!

ولكن ماذا يعني هذا، وأي شيء يكون قد استوى لكم، أو للمتأدبين والقراء؟ إنه ليبقى وراء ذلك آراء أبديت في أدب الرجلين وأمثلة قدمت لهذه الآراء، وشروح تضمنت بعض النظريات في الأدب وفي الحياة؟ وكل هذا قد بقي سليما كما هو،

لم نتناوله ردودكم ومناقشاتكم ، لأن شقيمة كاتب معين شغلتكم عن كل ما عداه من الآراء والأمثال !

ولقد أظهرت هذه المعركة أنكم تمضون فى الشتائم والتهم فينفسح لكم المجال ، حتى إذا قاربتم « الموضوع » وأردتم مناقشة الأمثلة ، ظهر العجز الفاضح والقصور فى الفهم والاطلاع . ليست كلمات الأستاذ « الطنطاوى » بعيدة ، وقد عجبت لاستطاعة الأستاذ « عبد الوهاب الأمين » أن يصبر على مناقشتها كما عجبت لصبر الأستاذ « كامل نصيف » فى الرد عليها ، فى حين لم أجدنى مستطيعا — على فرط المحاولة — أن أنظر إليها كشىء يستحق الالتفات !

وكيف يمكن أن تلتفت مثلا لرجل يكاد يفهم من قول العقاد عن الجيبون « ياعميد الفنون » أننا سنأتى غدا بقرد نجعله عميد « كلية الآداب » أو « الفنون الجميلة » فيفرق لهذا الحدث الخارق من المجددين ! . ثم ينتفض ذعرا من قوله « ياأبا البقرى والبهلوان » ويسأل الله السلامة من هذا « الاعتراف » الذى هو لحسن الحظ « حجة قاصرة » !

أو كيف يمكن أن تصبر على مناقشة رجل ، يحلف لك بالطلاق أن كلمة « الجيبون » لاتدخل فى شعر عربى ، أو يستحلف سواه ، ويفتى له بعدم طلاق امرأته ! ويكون الحكم طبعا هو « مأذون الشرع » فى قيمة الآداب !

وليته مع ذلك ابتكرها ، فانما هى بعينها قولة الرافعى فى « على السفود » عن بعض الألفاظ فى قصائد العقاد !

ووددت لو يحلف الأستاذ على هذا ، فأفرق غداً بينه وبين زوجه — إن كان متزوجاً — لأن « ابن الرومى » وحده وهو شاعر عربي ذكر من مثل هذه الألفاظ العشرات فى ألوان الطعام وأسماء الفواكه والخمر . كما ورد فى أدب غيره !!

وبعد هذا تجد من يكتب فيقول لك : لم لا تناقش هذا الكلام ؟ أناقشه ؟ أكل من لاقاك فى الطريق تقال كلاماً — أى كلام — تقف لتناقشه ؟

على أننى وددت لو خفت حدة هذه المناقشات ، ولو عاد إليها هدوؤها الذي بدأتها به فى الكلمة الأولى . وهأنذا أحاول الاهتمام ببعض مالا يصح الاهتمام به من الأقوال ، وتناسى ما فيها من تعالم وتحفز ، أو تفاهة وضآلة . ولعلى مفلح فى تحويل هؤلاء الناس — كلهم — إلى معالجة الموضوع

* * *

وأبدأ بكلمة الأستاذ « رفيق اللبابيدى » وقد مهد لها بدالة الصداقة والزمالة ، وساقها مساق من يورد رأيه — وليكن مايكون — مما يشفع فى تناولها بالتمحيص

أول ما يراه أننى لم أقرأ كتب العقاد — على مذهبى من ضرورة الثقافات المختلفة لقراءتها — ولم أقرأ كذلك كتب الرافعى كلها

فأما العقاد ، فقد قلت : إننى فهمته بمقدار استعدادى واطلاعى ، وإننى سأرتقى فى فهمه كلما زدت ثقافة واتسعت جوانب نفسى . فكان تفسيرى له فى هذه الحدود الضيقة بالنسبة له ، الواسعة جد الاتساع ، بالنسبة لمن ينصبون أنفسهم نقاداً له ، فيخرجونه من عالم الشعراء ، بل الأدباء ، وهم جالسون فى راحة غبية ، و« طمطمة » بليدة !

وأما الرافعى فقد قرأت له معظم ما كتب ، فلم أر فى شىء منه دلائل على أن هناك استعداداً ، لأن تخرج هذه الطبيعة شيئاً مما أطلبه ، يحفزنى لقراءة الباقى ، على الأمل فى وجود ذخيرة نفسية . وقد عنيت أن أقرأ له الكتب والمقالات ، التى تفيض النفس الانسانية فيها بالشعور الخالص — عادة — فاذا لم يكن فى هذا المجال صاحب ذخيرة ، فما هو بصاحب ذخيرة على الاطلاق

أما الأمثلة التى سقتها ، فليست منتقاة على اعتبار أنها « مما يوقع فيه » ولكن لأنها أدل على تصوير طبيعة خاصة ، نابية من الذخيرة الانسانية ، ومن دفعة الحياة والعقيدة ( العقيدة فى الأدب والحياة لا فى القاموس ! )

ولى رأى فى الأمثلة لا بأس من إيراده هنا . فالأديب قد يخطئ وقد يهبط فى كثير من المواضع ، ولكنه يبقى بعد أديباً لا تسلبه أخطاؤه ولا يسلبه ضعفه ، صفة « الانسانية » فى أدبه (لا الإنسانية التى تقابل الحيوانية فى تكوينه كما فهم بعض من يفهمون ! ) ولا تسلبه صفة « الطبيعة الفنية » وقد يخطئ أديب آخر مرة واحدة ، فتسلبه هذه المرة كل تلك الصفات

ومرجع ذلك هو « نوع » الغلطة ومقدار دلالتها على فهم الرجل للحياة ، وعلى نوع إحساسه بها . كالرجل الذى يحدثك عن زيارته لمدينة القاهرة ، فيترك كثيراً مما فيها من المشاهدات ويخطئ فى وصف الكثير ، ولا يدل ذلك على كذبه في وقوع الزيارة ؛ ولكنه لو قال مثلاً : « إنه كان من المشاهد التى رآها أسد يخترق الشوارع والطرقات » لحكمت من فورك بأنه كاذب فى دعواه ، وهى مع هذا غلطة واحدة لا غلطات !

فحين يقول الرافعى : إن الحبيبة لا تتعلق بقلب حبيبها بعد انتهاء الحب إلا بخيطين اثنين هما غيظها له ، وغيظه لها ... يدل على أنه لم يحس الحب يوماً ما ، ولم يحسن ملاحظته فى غيره ، بل لم يكن ذا طبيعة قابلة للحب ، ولا مستعدة لتلقى دفعاته وانفساحه ولو كتب بعد ذلك عن الحب ألف كتاب

وحين يقول ما يفهم منه أنه يرى النهر الذى حافتاه من الذهب والفضة ومجراه من الدر واليواقيت ، أجل من النهر الذى حافتاه من العشب الأخضر ، ومجراه من المدر والطين ... يدل على أنه لم يحس الإحساس بجمال « الطبيعة » ، بل على أنه لم يوهب الطبيعة التى تحس هذا الجمال

وهكذا كل مثال جئت به لمثل هذه الغاية ، فهى غلطات : « الأسد الذى يخترق شوارع القاهرة » لا غلطات النسيان والضعف الطارئ ، والخطأ العارض فى التعبير ، ولعل فى هذا البيان كفاية

ولعل القسوة التى يتخيلها الأستاذ ، ليست فى الحكم الذى أصدرته ؛ ولكنها فى وضع الرافعى مقابلا للعقاد ، والجمع بينهما فى عنوان ؛ فمن هنا بدأت مطالبة الرافعى بأدب الطبع ، وأدب النفس ، لأن المقابل له فياض بهذا النوع ، مبرز فيه ، بل هو مزيته ورمز فنه . وقد كان من جراء مطالبة الرافعى بهذا اللون الرفيع من الفن الأدبي ، ظهور خوائه ، وإنكار أدبه ( إذ كان المطلوب نوعاً خاصاً منه يعلو على مجرد الأسلوب المتمايل ، والجمل المنقوشة ) . فهذه هى القسوة . ومتى أعفينا الرافعي من أدب النفس والطبع ، فقد نجده بعد ذلك شيئاً فى التعبير ، وفى الأخذ بطريق خاصة فى هذا التعبير ، ولكن ما قيمة ذلك فى عالم الطبائع الفنية ، وفى معرض التعبير عن النفس وتمثيل الحياة ؟

ثم يسألني رأيي فى أبيات اقتطعها من قصيدة للعقاد ، وشعر العقاد وحدة لا بد من عرضها كاملة — ومع هذا فأى شيء ؟ لعله يريد أن يقول : ها هو ذا العقاد يشبه الحسن بالجوهرة ، ويذكر اللآلئ كما ذكرها الرافعى !

وهذه ملاحظة شكلية ، فما قلت : إن كل من ذكر هذه الألفاظ يكون خواء من تقدير الجمال الروحى ، ولكن الذى يقول كما قال الرافعى ، ويبدئ ويعيد ، ويراها أجل من الطبيعة كما قال عن « النهر » ... يكون كذلك

فأما حين تقول : إن الحسن جوهرة ، ثم لا يكمل البيت حتى تقول : « لها الثراء » « ثراء النفس أثمان » وحين تقول : إن هذا الحسن يناله من لا يعرف قيمته ، ويحرمه الخبير بجماله وسحره وطبيعته ، كالجوهرة التى يحرمها اللآل ويقنو نفيسها من لا يسومها ... الخ

حين تقول مثل هذا فنحن فى صميم الشعور الروحى . والجوهرة واللآل هنا أدوات للتشبيه ، وليست مقصودة لذاتها ، ولا مغالى فى قيمتها . « وثراء النفس » هو الملتفت إليه ، والمقدر ثمنا لهذا الحسن الفريد

أما إنكار الأخ لشاعرية العقاد فليس لى فيه كلام . ووددت — والله — لو أننى أملك طبيعة فنية أخرى ، أهبها للزميل . ولكنى آسف معذور . وكذلك قولى فى الحديث عن « الجيبون » !

أما أسئلة « ع... دمشق » فوددت لو خلت من هذا « الجفاف الناشز » فى آخرها . ومع هذا فسأغض الطرف عنه ، وأعتبرها أسئلة لمستفهم لا متعالم !

فمن السؤال الأول : أذكر أن فى الأشياء حياة نابضة فى ضمائرها ، وهى أعمق وأولى بعناية الفنان من الحياة الظاهرة على سطوحها ولو اتصلت بها — فحياة الزهر الظاهرة تبدو فى لونها ورائحتها وطراءتها ... الخ . أما الحياة النابضة فى ضميرها فهى المتصلة بتعبير الحياة المعنى فى هذه الزهرة ، وقصد الطبيعة من إنشائها . وهى الحياة التى تستمد من نهر الحياة الكبير الجارى منذ بدء الخليقة إلى نهايتها ، المتدافعة أمواجه فى كل حى وجد أو سيوجد . وهى الحياة التى تكون حلقة فى سلسلة الحياة الكبرى المتطورة من الخلية الواحدة إلى الانسان . وهذا الالتفات

الأخير هو الالتفات الفنى لنظرية داروين ، الصالح لأن يتناوله الفن والأدب ، لأنه يتناول الحياة فى معرض أطوارها ونماذجها المعبّرة

وعن السؤال الثانى : أذكر أن السائل أخطأ فى إرجاع الضمائر إلى ماتعود عليه فى الجملة . فنشأ هذا اللبس ، فأنا لم أقصد أن الحياة الظاهرة على سطوح الأشياء — غير أشكال « الحياة » وصورها . إنما أردت أنها غير أشكال « الأشياء » وصورها فلا داعى للسؤال . أما أن العناية بالحياة فى الضمير والحياة فى الظاهر أولى بالتفات الفنان من صور الأشياء وأشكالها ، فهذا حق . والذى يقول :

وكأن محمر الشقيق إذا تصوب أو تصعد
أعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد

لا يرى غير أشكال الأشياء وصورها ، ولا يعنى بحياة الشقيق فى سطوحها ولا فى أعماقها ، فيكون قوله تافهاً وإن سومه عشاق التشبيهات النفيسة بسعر كبير !

وعن السؤال الثالث : أذكر أن الخوالج النفسية والصور الذهنية ، وأدب الذهن ، وأدب الطبع ، تدل على ألوان من الأدب تكاد الآن تكون قد أخذت وضوح دلالة « العلم » على المسمى . وقد ضربت لها أمثلة — مع هذا — فمن لم يكن قد سمع شيئاً عن هذه الألوان من الأدب ، ولم يكن قد أمكنه الانتفاع بالأمثلة التى سقتها ، فليقرأ ، ولينتظر حتى تنضج فى نفسه هذه المعانى

أما السؤال الرابع فلا معنى له بعد ما قلت عن أسلوب العقاد ما قلت ، وبعد ما وعدت بالإفاضة عن هذا الأسلوب . فليقرأ السائل كلماتى كاملة . وليراجع كلمة الأستاذ عبد الوهاب الأمين فهى مفصحة عن هذه الناحية

* * *

وأما ملاحظة الفاضل « على كمال . فلسطين » فنصفها فى موضعه؛ وقد نشأ هذا من اضطراب فى ترتيب بعض الجمل ! وكثيراً ما يقع مثل هذا فنكتفى بفطنة القارئ . ولكن مع هذا بقى التناقض بين قول شوبنهور وتلخيص الرافعى واضحاً

فالرافعى يقول : « فان محصل كلام هذا الفيلسوف أن ما تراه بسبب من إرادتك وغرضك وشهواتك ، فجماله فيك أنت لا فيه لأنه فى هذه الحالة صورة الاستجابة إلى ما فيك ، فلو لم يكن بعلك أنت هذا الغرض ، لم يكن معه هو ما خيّل لك من الجمال . فهو على الحقيقة ( باعتبار الفكرة المجردة لا جمال فيه )

وأول هذا الكلام لا صلة بينه وبين شوبنهور ، ولا علاقة فى منزع ولا اتجاه ، وإنما هو رأى آخر فى تعليل الجمال يعتبر رخيصاً جداً إذا قيس مستواه بمستوى تفكير شوبنهور فى رأيه وآخر هذا الكلام مناقض تماماً لرأى الفيلسوف ( راجع ما بين القوسين الكبيرتين على كلام شوبنهور )

وبينما هو يقول — عن شوبنهور خطأ — : « فهو على الحقيقة باعتبار الفكرة المجردة لا جمال فيه » — وهو عكس رأى شوبنهور — يعود فيقول : « فالنتيجة من ذلك أن الأشياء تحزننا كلما ابتعدت من عالم الفكرة واقتربت من عالم الإرادة ، وأنها تفرحنا كلما ابتعدت من عالم الإرادة واقتربت من عالم الفكرة » وهذا عكس ما نسبه الرافعى أولاً لشوبنهور ، وإن كان فى حقيقته هو رأى الفيلسوف المسكين !

الشىء باعتبار الفكرة المجردة جميل فى رأى الفيلسوف الصحيح . والشىء باعتبار الفكرة المجردة لا جمال فيه ، فى الرأى الذى ينسبه الرافعى إليه . وهذا هو سوء الفهم والتخليط

وعلى كل فأنا شاكر لحضرة الأديب ملاحظته

* * *

أما الأستاذ سعيد العريان ، فقد شغلنا عنه وعن كلامه الطويل بما هو لائق أن نتحدث فيه ، فمعذرة يا أستاذ سعيد !

( حلوان ) سيد قطب


## إشـــتراك الصيف

تقبل ادارة الرسالة والرواية الاشتراك الشهرى فى المجلتين أو فى احداهما تسهيلاً على حضرات القراء فى راحة الصيف ومقدار الاشتراك فى الرسالة أربعة قروش وفى الرواية قرشان تدفع سلفاً